



د/ عمر الحلبي

تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره...

Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي
في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل
(سورة الأنبياء أنموذجًا)*

د/ عمر محمد سعيد حج سليم الحلبي
أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن
قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

omhalabi@uqu.edu.sa

تاريخ قبوله للنشر 1/6/2025

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(* تاريخ تسليم البحث 28/4/2025

(* موقع المجلة:

العدد(48)، شهر يوليو 2025م

578

مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل (سورة الأنبياء أنموذجاً)

د/ عمر محمد سعيد حج سليم الحلبي
أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن
قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل - سورة الأنبياء أنموذجاً، تطرقت فيه إلى التعريف بالقاضي البيضاوي وبتفسيره، ثم عرّجت على بيان مفهوم تفسير القرآن بالسنة عند أهل التفسير، وأهميته، وأنواعه، وبعد ذلك تناول البحث المواضيع التي استدلل فيها القاضي البيضاوي بالأحاديث النبوية في تفسيره من خلال سورة الأنبياء، وقارنت ذلك بأقوال المفسرين؛ للتعرف على مدى الوفاق بين تلك الأقوال وبين استدلالات القاضي البيضاوي، وسلكت في ذلك: المنهج الاستقرائي، التحليلي، الاستنباطي.

أهم نتائج البحث:

- 1- المقصود بتفسير القرآن بالسنة: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي يتوصل من خلالها إلى: فهم كتاب الله ﷻ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.
- 2- أهم أنواع تفسير القرآن بالسنة ثلاثة، وهي: التفسير المباشر الصريح - التفسير الموضوعي - التفسير الاستشهادي.
- 3- درجات الأحاديث التي استدلل بها القاضي البيضاوي في تفسير سورة الأنبياء كالتالي: حديثان متفق عليهما، وثلاثة أحاديث صحيحة، وحديث واحد موضوع.
- 4- استدلال القاضي البيضاوي بالأحاديث النبوية في تفسير سورة الأنبياء جاء موافقاً للقول الراجح في أربعة مواضع، ومخالفاً في موضعين.

أهم التوصيات:

- 1- تخصيص رسائل علمية تعنى بدراسة تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره كاملاً.
- 2- إظهار مزيد من علوم القرآن الواردة في هذا التفسير القيم؛ لأن ما تناولته الدراسات السابقة لا يُقفل من ذلك إلا التزير اليسير.

الكلمات المفتاحية: تفسير القرآن بالسنة، القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل، سورة الأنبياء.

**The Interpretation of the Qur'an by the Sunnah
According to Al-Qadi Al-Baydawi in His Exegesis
Anwar al-Tanzil wa Asrar al-Ta'wil
(Surat Al-Anbiya as a Model)**

Dr. Omar Muhammad Saeed Hajj Salim Al-Halabi

Associate Professor of Tafsir and Qur'anic Sciences

Department of the Qur'an and Sunnah, College of

Da'wah and Fundamentals of Religion

Umm Al-Qura University

Abstract

This research deals with the study of the interpretation of the Qur'an in the Sunnah when Judge Oval in his interpretation of the lights of download and the secrets of interpretation - Surat Al-Anbiya as a model, In it, I dealt with the definition of Judge Oval and his interpretation, and then I went to explain the concept of interpretation of the Qur'an in the Sunnah when the people of interpretation, and its importance, and types, After that, I dealt with the study of the places in which Judge Oval inferred the hadiths of the Prophet in his interpretation through Surat Al-Anbiya, and compared it with the sayings of the commentators; And followed in that: the inductive, analytical, deductive method.

The most important results of the research:

- 1- What is meant by the interpretation of the Qur'an by Sunnah: the sayings, deeds and reports of the Prophet through which he reaches: understanding the Book of Allah, explaining its meanings, and extracting its rulings and rulings.
- 2- The most important types of interpretation of the Qur'an in the Sunnah are three, namely: direct explicit interpretation-objective interpretation- martyrdom interpretation.
- 3- The degrees of hadiths cited by Judge Al-Baydawi in the interpretation of Surat Al-Anbiya are as follows: two hadiths agreed upon, three authentic hadiths, and one hadith subject.
- 4- Judge Oval's inference from the hadiths of the Prophet in the interpretation of Surat Al-Anbiya came in accordance with the most correct saying in four places, and contrary in two places.

The most important recommendations:

- 1- Allocating scientific theses concerned with studying the interpretation of the Qur'an in the Sunnah according to the judge Al-Baydawi in his full interpretation.
- 2- Showing more of the Qur'anic sciences contained in this valuable interpretation, because what was dealt with in previous studies represents only a small fraction.

Keywords: Interpretation of the Qur'an in Sunnah, Al-Qadi Al-Baydawi, Anwar Al-Tanzil, Surat Al-Anbiya.

مقدمة البحث:

"الحمد لله، أحيًا بما شاء مآثر الآثار بعد الدثور، ووفق لتفسير كتابه العزيز بما وصل إلينا بالإسناد العالي من الخبر المأثور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تُضاعف لصاحبها الأجور، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، الذي أسفر فجره الصادق فمحا ظلمات أهل الزيغ والفجور، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ذوي العلم المرفوع، والفضل المشهور، صلاةً وسلامًا دائمين ممّر الليالي والدهور"^(١)، أما بعد:

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، أنزلها ربنا على نبيه محمد ﷺ؛ فكان أعلم خلقه بمعاني وحبه، وأعرفهم بدلائل كلامه؛ ومن هنا: فقد اهتم علماء التفسير بالسنة النبوية، وظهرت عنايتهم بها في توظيفها عند تفسيرهم لكلام الله ﷻ، سواءً في ذلك المصنفون في التفسير بالمأثور والمصنفون في التفسير بالرأي المحمود. ومن المصنفين في التفسير بالرأي المحمود الذين اعتنوا بالاستدلال بالسنة النبوية في تفاسيرهم: القاضي البيضاوي - رحمه الله، فقد اشتمل تفسيره على عدد كبير من أحاديث السنة النبوية، ما كان منها تفسيرًا مباشرًا ومالم يكن كذلك، ومن هذا المنطلق؛ فقد جاء هذا البحث ليتناول دراسة هذا الجانب الذي تميّز به هذا التفسير، ووسمته ب: "تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل (سورة الأنبياء أمودجًا)".

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تظهر أهمية الموضوع وأسباب اختياره فيما يلي:

- ١- مكانة تفسير القرآن بالسنة: كونه أعلى أنواع التفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن.
- ٢- القيمة العلمية لتفسير القاضي البيضاوي: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل".
- ٣- عدم تناول الباحثين لهذا الموضوع بالجمع والدراسة - مع أهميته - فيما يخص هذا التفسير.
- ٤- اشتمال سورة الأنبياء في تفسير القاضي البيضاوي على جملة من تفسير القرآن بالسنة التي ستساهم معالجتها ودراستها في بيان أهمية هذا النوع من التفسير.
- ٥- أهمية هذا البحث لدى طلاب الدراسات العليا؛ لمساهمته في تسهيل اختيار موضوعات الرسائل العلمية.

مشكلة البحث وأسئلته:

موضوع هذا البحث ترتبط به أسئلة تُبرز مشكلته، وهي كالتالي:

- ١- ما المقصود بتفسير القرآن بالسنة وما أهم أنواعه؟
- ٢- ما نوع التفسير المرتبط بالأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسيره؟
- ٣- ما درجة الأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسيره من حيث القبول أو الرد؟
- ٤- ما علوم القرآن المتعلقة بالأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسيره؟
- ٥- ما مدى موافقة المفسرين للقاضي البيضاوي في مواضع استدلاله بالأحاديث في تفسيره؟

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٩/١.

أهداف البحث:

أسعى من خلال هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- ١- رسم حدٍ لمفهوم تفسير القرآن بالسنة.
- ٢- بيان أهم أنواع تفسير القرآن بالسنة.
- ٣- بيان نوع التفسير المرتبط بالأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسيره، هل هو تفسيرٌ مباشر أم غير ذلك.
- ٤- بيان درجة الأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسيره، من حيث القبول أو الرد.
- ٥- إبراز أنواع علوم القرآن المتعلقة بهذه الأحاديث.
- ٦- بيان مدى موافقة المفسرين للقاضي البيضاوي في مواضع استدلاله بالأحاديث في تفسيره.

حدود البحث:

اشتمل هذا البحث على دراسة الأحاديث النبوية التي استدلت بها البيضاوي - رحمه الله - في تفسيره، سواء ما كان منها متعلقًا بعلوم التفسير وما كان متعلقًا بعلوم القرآن^(١)؛ وذلك من خلال ما ورد في سورة الأنبياء، وهي (٦) أحاديث.

الدراسات السابقة:

لم أقف على من تناول تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره بالجمع والدراسة، لكن وقفت على ما له بتفسيره صلة، وبيان ذلك كما يلي:

- ١- البيضاوي ومنهجه في التفسير، للباحث: يوسف أحمد علي؛ رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى.
- واختلاف هذا البحث مع بحثي ظاهر؛ وذلك بتباين العلاقتين؛ فهذا في منهج البيضاوي وبحثي في دراسة تفسير القرآن بالسنة عند البيضاوي.
- ٢- استدراقات شيخ زاده في حاشيته على البيضاوي في بعض علوم القرآن، للباحث: خضر قرق، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، عام (٢٠١٢م).
- والفرق بين هذا البحث وبين بحثي: أنّ الباحث لم يتطرق في رسالته إلى ما يتعلّق بتفسير القرآن بالسنة عند البيضاوي، وقد وضّح ذلك في حدود دراسته؛ حيث بيّن أنّها مقتصرّة على بعض علوم القرآن.
- ٣- الاستنباط عند القاضي البيضاوي من خلال تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل - دراسة نظرية تطبيقية، للباحث: يوسف بن زيدان السلمي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، عام (١٤٣٣هـ).

(١) يقال في الفرق بينهما: "١- إن كانت المعلومة من علوم القرآن لا أثر لها في فهم المعنى؛ فهي من علوم القرآن وليست من علوم التفسير؛ كمعرفة فضائل سورة الإخلاص، فإنها من علوم القرآن، لكن معرفتها أو جهلها لا يؤثّر في فهم المعنى؛ ٢- وإن كانت من المعلومات التي تؤثّر في فهم المعنى؛ كمعرفة غريب الألفاظ، فهذا من علوم التفسير، ومن علوم القرآن من باب أولى"، المحرر في علوم القرآن للطيار: ٥٤؛ قلت: فبينهما عمومٌ وخصوص؛ فكلُّ علمٍ من علوم التفسير هو علمٌ من علوم القرآن ولا عكس.

وهدفت هذه الدراسة إلى جمع استنباطات البيضاوي من خلال تفسيره ودراستها، بينما هدف بحثي إلى دراسة تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي - في حدود الدراسة - ثم المقارنة بينه وبين أقوال غيره من المفسرين في تلك الدراسة.

٤- دراسة مقارنة بين منهجي البيضاوي وأبي حيان الأندلسي في القرآن الكريم: الجزء الأول من القرآن الكريم أنموذجاً، للباحث: جابر إشطيط، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، عام (٢٠١٦م).

وخروج موضوع هذه الدراسة عن إطار موضوع دراستي ظاهرٌ جلبي، والتباين بينهما واضح؛ حيث تتعلق هذه الرسالة بدراسة منهج البيضاوي مقارنةً مع أبي حيان الأندلسي، وأما بحثي: فهو دراسة لتفسير القرآن بالسنة عند البيضاوي مع مقارنته بأقوال المفسرين الآخرين.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، ثم المصادر والمراجع. المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث وأسئلته، وأهداف البحث، ثم حدوده، فالدراسات السابقة، وخطة البحث، ثم منهج البحث وإجراءاته.

التمهيد: التعريف بالقاضي البيضاوي وتفسيره (أنوار التنزيل)، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: التعريف بالقاضي البيضاوي.

المسألة الثانية: التعريف بتفسير أنوار التنزيل.

المبحث الأول: مفهوم تفسير القرآن بالسنة وأهميته وأنواعه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم تفسير القرآن بالسنة.

المطلب الثاني: أهمية الرجوع إلى السنة في تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثالث: أنواع تفسير القرآن بالسنة.

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة الوارد في سورة الأنبياء

وفيها خمسة مطالب:

المطلب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَاءَ لَهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْفُقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

المطلب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْمَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

المطلب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

المطلب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

المطلب الخامس: خاتمة السورة.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث، مع التوصيات والمقترحات.

المصادر والمراجع.

منهج البحث وإجراءاته:

سلكت في كتابة هذا البحث المنهج: الاستقرائي، التحليلي، الاستنباطي. فعمدت إلى تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) واستقرأت كثيراً منه؛ للوقوف على المواضيع التي استدلّ فيها القاضي البيضاوي بالسنة، ثم انتخبت من ذلك المواضيع حدود البحث، وتناول بالبحث والمقارنة بما تيسر لي من أقوال المفسرين الأخرى، وناقشت استدلالاتهم، ثم استبطلت الأقوال الراجحة من ذلك حال وجود الخلاف؛ معتمداً على أصول التفسير وقواعد الترجيح بين أقوال المفسرين.

التمهيد:

التعريف بالقاضي البيضاوي وتفسيره أنوار التنزيل

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: التعريف بالقاضي البيضاوي

هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن عليّ، أبو الخير/ القاضي، ناصر الدين، البيضاوي^(١)، الشافعي^(٢). ونشأ البيضاوي نشأةً صحيحةً في أسرة فاضلة كانت تُعنى بالعلم والدين؛ فأبوه إمام الدين كان أكبر قضاة شيراز^(٣)، وعليه كان ابتداء تفقه البيضاوي في العلوم الشرعية التقليدية^(٤). وقد حاز البيضاوي مكانةً علمية قيمة، أشار إليها السبكي في قوله: "كان إماماً، مُبرِّزاً، نظّاراً، صالحاً، متعبداً، زاهداً"^(٥)، وقال ابن حبيب: "عالمٌ نَمَى زرعُ فضله ونَجْمٌ، وحاكمٌ عَظُمَتْ بوجوده بلادُ العجم، برع في الفقه، والأصول، وجمع بين المعقول والمنقول، تكلم كلٌّ من الأئمة بالثناء على مصنفاته"^(٦). توفي البيضاوي سنة (٦٨٥هـ) في القول المشهور الذي عليه الأكثر، وقيل: توفي سنة (٦٩١هـ)^(٧).

المسألة الثانية: التعريف بتفسير أنوار التنزيل

سمّى البيضاوي تفسيره بـ: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، كما نصّ في مقدمته^(٨)، ويبيّن في هذه المقدمة كذلك: سبب تأليفه للكتاب، وطرق التفسير التي انتهجها فيه، ومكانة علم التفسير، وشروط المفسر^(٩).

(١) البيضاوي: نسبة إلى البيضاء، وهي مدينة مشهورة بفارس، ينظر: معجم البلدان للحموي: ٥٢٩/١.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ١٥٧/٨.

(٣) شيراز: بلدٌ عظيمٌ مشهور معروف مذکور، وهو قصبه بلاد فارس، ودار الملك بها، ينظر: معجم البلدان: ٣٨٠/٣.

(٤) ينظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي: ٤٣٦/٢.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى: ١٥٧/٨.

(٦) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ١٧٢/٢.

(٧) ينظر: المصدر السابق.

(٨) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ٢٣/١.

(٩) ينظر: المصدر السابق.

وبيّن حاجي خلفية القيمة العلمية لهذا التفسير وأهمّ مصادر البيضاويّ فيه؛ فيقول: "وتفسيره هذا كتابٌ عظيمُ الشَّأن، غنيٌّ عن البيان، حَلَّص فيه من (الكشاف)^(١) ما يتعلَّقُ بالإعراب والمعاني والبيان، ومن (التفسير الكبير)^(٢) ما يتعلَّقُ بالحكمة والكلام، ومن (تفسير الراغب)^(٣) ما يتعلَّقُ بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات؛ وضمَّ إليه: ما ورى زنادَ فكره من الوجوه المعقولة، والتصرُّفات المقبولة؛ فجلا رينَ الشكِّ عن السَّريرة، وزاد في العلم بسطةً وبصيرةً"^(٤).

ومنهج البيضاويّ في تفسيره على وجه الإجمال: ابتداء تفسير السورة ببيان مكيّة أو مدنيّة، ثم ذكر عدد آياتها، فالشُّروع في تفسير آياتها آيةً آيةً، بالاستعانة بجملةٍ من علوم التفسير المختلفة^(٥)، ثم ختم تفسير كلِّ سورةٍ ببيان ما ورد في فضلها^(٦).

المبحث الأول: مفهوم تفسير القرآن بالسنة وأهميته وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم تفسير القرآن بالسنة

بما أن مصطلح تفسير القرآن بالسنة مصطلح مركّب؛ فالأنسب تعريف أجزائه لغةً واصطلاحاً، ومن ثمّ بيان مفهومه عند المفسرين كمصطلح مركّب، وذلك كائنٌ على النحو التالي:

التفسير في اللغة:

"الْقَسْرُ: البَيَانُ، وَقَدْ قَسَرْتُ الشَّيْءَ أَقْسَرُهُ - بِالْكَسْرِ - فَسَّرًا، وَالتَّفْسِيرُ مِثْلُهُ، وَاسْتَفْسَرْتُهُ كَذَا، أَي: سَأَلْتُهُ أَنْ يُفَسِّرَهُ لِي"^(٧)؛ **وفي الاصطلاح:** "علمٌ يُعرَفُ به: فهمُ كتابِ الله - المنزَّل على نبيه مُحَمَّدٍ ﷺ، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامِهِ وحِكَمِهِ"^(٨).

والقرآن في اللغة:

مشتقٌّ من القَرَو، وهو الجمعُ؛ لأنه يجمع السُّورَ فيضمُّها، أو لأنَّ القارئَ يجمعُه بقراءته ويضمُّ بعضُه إلى بعضٍ^(٩)؛ **وفي الاصطلاح:** كلامُ الله المنزَّل على نبيه مُحَمَّدٍ ﷺ، المتعبَّدُ بتلاوته، المعجِزُ بأقصرِ سوره، المنقولُ إلينا بالتواتر^(١٠).

(١) الكشّاف هو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للرازي، ومعلومات هذين الكتابين مودعة في فهرس المصادر والمراجع.

(٣) تفسير الراغب: مطبوع باسم: "تفسير الراغب الأصفهاني"، (الجزء ١) كلية الآداب، جامعة طنطا، (١٤٢٠هـ)؛ الجزء (٢، ٣) الرياض، دار الوطن: (١٤٢٤هـ)، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، (١٤٢٢هـ).

(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة: ١/١٨٦.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل: ١/٢٣.

(٦) سيأتي توضيح ما في ذلك في المطلب الأخير من المبحث الثاني.

(٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: ٢/٧٨١، مادة: "فسر".

(٨) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/١٣.

(٩) ينظر: الصحاح: ١/٦٥، مادة: "قرأ"، ومجمل اللغة لابن فارس: ٧٥٠، مادة: "قرأ".

(١٠) المختصر في أصول الفقه لابن اللحام: ٧٠، والمحرر في علوم القرآن للطيار: ٢٢.

والسنة في اللغة:

الطريقة، يقال: استقام فلانٌ على سننٍ واحد، وجاءت الريح سنائن: إذا جاءت على طريقةٍ واحدةٍ لا تختلف^(١)؛ وفي الاصطلاح: "ما صدر عن النبي ﷺ: من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ"^(٢). وعلى ما سبق: فيمكن القول بأن مفهوم تفسير القرآن بالسنة، بالنظر إليه كلفظٍ مركّب؛ يُقصد به عند المفسرين: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي يُتوصّل من خلالها إلى: فهم كتاب الله ﷻ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.

المطلب الثاني: أهمية الرجوع إلى السنة في تفسير القرآن الكريم

الرجوع إلى السنة في تفسير كلام الله تعالى بالغ الأهمية؛ فالنبي ﷺ أعلم الناس بمراد الله ﷻ، وأعظمهم فهماً لكلامه؛ وفي هذا يقول الطبري: "تأويل القرآن غير مُدرِك إلا ببيان مَنْ جعل الله إليه بيان القرآن"^(٣)؛ وقال شيخ الإسلام: "عليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ممّا فهمه من القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]"^(٤).
 "وتنبُّ أقوال الأئمة في هذا يطول، ومن نظر في تعظيم السلف لسنة النبي ﷺ: تعلّمًا، وتعلّمًا، وعملاً؛ تبين له عظيم منزلتها، وشدة الحاجة إليها في بيان معاني القرآن وغيره"^(٥).

المطلب الثالث: أنواع تفسير القرآن بالسنة

الأحاديث النبوية التي يستدل بها المفسرون منها ما دللته صريحة مباشرة ومنها ما هو غير ذلك، وبيان ذلك كما يلي:

التفسير المباشر الصريح:

المقصود به: ما ورد عن النبي ﷺ صريحًا في تفسير الآية: قولًا، أو فعلًا، أو تقريرًا.
 مثال التفسير القوي: تفسير النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] بقوله ﷺ: ﴿«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيتُهُ"^(٦)؛ فهذا تفسيرٌ صريحٌ مباشر.

(١) ينظر: الصحاح: ٢١٣٨/٥، مادة: "سنن".

(٢) التعريفات للجراني: ١٢٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن للطبري: ٢٨٣/٢.

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٣٩.

(٥) التفسير النبوي للباتلي: ٣٧/١.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٧٤) ١٧/٦، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب.

ومثال التفسير الفعلي: حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؛ إلا يقول فيها: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»^(١)، أي: "يعمل بما أمر به من التَّسْبِيحِ والتَّحْمِيدِ والاستغفار فيه، في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ﴾ [النصر: ٣]"^(٢)؛ فهذا تفسير عملي صريح في بيان معنى الآية.

ومثال التفسير التقريري: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: جاء خبرٌ من الأخبارِ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ: أن الله يجعل السَّمَاوَاتِ على إصبعٍ، والأَرْضِينَ على إصبعٍ، والشَّجَرَ على إصبعٍ، والماءَ والنَّرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلائقِ على إصبعٍ، فيقول: أنا الملكُ؛ «فَصَحَّحَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تصديقاً لقول الحَبْرِ، ثُمَّ قرَأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٧٦]»^(٣)؛ فهذا تقريرٌ نبويٌّ يفيد في تفسير الآية^(٤).

التفسير الموضوعي:

المقصود به: "أن يُستفادَ من السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ في بيان الموضوع الذي تضمَّنته الآية؛ تقريراً أو تفصيلاً، دون أن يكون في الحديث تفسيرٌ مباشرٌ للآية"^(٥).

مثاله: قولُ ابنِ كثيرٍ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]: "وقد استدلَّ كثيرٌ من أئمة السُّنَّةِ بهذه الآية على أن النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرْصِدَتْ وهُيئَتْ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك"^(٦)، ثم ذكر جملةً من الأحاديث التي تقرر المعنى الذي أشار إليه، منها: حديث: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ النَّارُ» الحديث، وفيه: «قالَ اللهُ تبارَكَ وتعالى للجنَّةِ... وَقَالَ لِلنَّارِ»^(٧)؛ ومنها: حديث: «اشتكتِ النَّارُ إلى رَبِّهَا فقالت: رَبِّ، أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا؛ فأذن لها بِنَفْسَيْنِ: نفسٍ في الشتاءِ ونفسٍ في الصَّيْفِ»^(٨)؛ فهذا من جنس التفسير الموضوعي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٦٧) ١٧٨/٦، كتاب تفسير القرآن، سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، ومسلم في صحيحه (٤٨٤) ٣٥١/١، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطاني: ٤٣٦/٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨١١) ١٢٦/٦، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥) ٢٥٢/١.

(٤) التفسير النبوي: ٥٧/١.

(٥) التفسير النبوي: ٦٠/١.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٠٢/١.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٥٠) ١٣٨/٦، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [ق: ٣٠]، ومسلم في صحيحه (٢٨٤٦) ٢١٨٧/٤، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٠) ١٢٠/٤، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأهلها مخلوقة، ومسلم في صحيحه (٦١٧) ٤٣١/١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظُّهر في شِدَّةِ الحرِّ لِمَنْ مَضَى إلى جماعةٍ ويناله الحرُّ في طريقه.

التفسير الاستشهادي:

المقصود به: "أن يذكر النَّبِيُّ ﷺ الآية في حديثه من غير أن يكون فيه تفسيرٌ مباشر لها، بل يذكرها على سبيل الاستشهاد لحادثة، أو التأكيد والتقرير لحديثه"^(١).

مثاله: حديث ابن عباس - رضي الله عنها، عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا»^(٢)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَلَقٍ تَعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛^(٣) فهذا الحديث يفيد في تفسير الآية بوجه غير مباشر، وبه أخذ جماعة من المفسرين في تفسير هذه الآية^(٤).

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة الوارد في سورة الأنبياء

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَوُّهُمْ إِنْ كَانُوا يَتَطَّقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

قال البيضاوي - رحمه الله: "وما زوي"^(٥) أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «لِإِبْرَاهِيمَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ»، تسمية للمعاريض^(٦) كذبا؛ لَمَا شَاجَتْ صُورُهَا صُورَتُهُ"^(٧).

تخريج الحديث:

الحديث متفق عليه^(٨)، ولفظه: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثَبَّتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾» الحديث.

الدراسة:

اختلف العلماء في توجيه ما قاله إبراهيم النَّبِيُّ ﷺ الوارد في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أنه كذب واقع حقيقة، وهذا مذهب عامة المفسرين، كما قاله الطبري وغيره^(٩).

(١) التفسير النبوي: ٦٤/١.

(٢) أي: غير محتونين، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣٦٢/٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٤٩) ١٣٩/٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ومسلم في صحيحه (٢٨٦٠) ٢١٩٤/٤، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

(٤) ينظر: جامع البيان: ٥٤٥/١٨.

(٥) الحديث في الصحيحين كما سيأتي؛ لذلك فالتعبير عنه بصيغة التمرير (زوي) ليس على اصطلاح المحدثين.

(٦) "المعاريض: جمع معارض، من التعريض، وهو خلاف التصريح من القول"، النهاية: ٢١٢/٣.

(٧) أنوار التنزيل: ٥٥/٤.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥٨) ١٤٠/٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ومسلم في صحيحه (٢٣٧١) ١٨٤٠/٤، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ.

(٩) ينظر: جامع البيان: ٤٦١/١٨، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للنفلي: ١٤٧/١٨.

واستدلَّ عامة المفسرين بظاهر الحديث السابق، وقالوا: "وغيرُ مستحيل: أن يكون الله قد أذن لرسوله وخليله في ذلك؛ ليُقرَّع قومه، ويوبِّخهم، ويحتج عليهم، ويُعرفهم موضعَ خطئهم، كما أذن ليوسف عليه السلام حين أمر مُناديَه فقال لإخوته: ﴿يٰٓأَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَدْرِ قَوْتٌ﴾ [يوسف: ٧٠]، ولم يكونوا سرقوا شيئاً" (١).

القول الثاني: أن ما جرى من الخليل عليه السلام ليس كذباً حقيقةً، بل هو من المعارض أو نحو ذلك، وهو قول بعض أهل المعاني، ورَّجَّحه الماوردي والرازي وغيرهما (٢).

وتأوَّل أصحاب هذا القول ظاهر الآية والحديث؛ فقال ابنُ قتيبة: "أراد: «بل فعله كبيرهم هذا؛ إن كانوا ينطقون»؛ فجعل التُّنطق شرطاً للفعل، وهو لا ينطق ولا يفعل" (٣)، أي: "أنا فعلت ذلك" (٤)؛ وقال الرازي: "أما الخبر الأول وهو الذي رووه، فلأن يُضَافَ الكذبُ إلى زواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-... ثُمَّ إن ذلك الخبر لو صحَّ، فهو محمولٌ على المعارض" (٥).

وأجاب الواحدي - رحمه الله - عن هذين التأويلين وغيرهما بقوله: "وكلُّ هذا تكلفٌ واحتيالٌ مع ورود الخبر بأن إبراهيم كذب ثلاث كذبات، ويؤيدُ هذا: حديثُ الشَّفاعَةِ المرويُّ في الصَّحيح: أنَّ الناس إذا جاؤوا إلى إبراهيم ليشفع لهم، يعتذر بمذه الكذبات" (٦) (٧) (٨).

الترجيح:

الرَّاجح ما ذهب إليه عمَّة المفسرين؛ فإن المذكور في الحديث تفسيرٌ نبويٌّ صريحٌ، والحديث في الصحيحين، وبه يتبيَّن: أن ما ذهب إليه البيضاوي - رحمه الله - في تأويل الآية والحديث مخالفٌ لقول عمَّة أهل التفسير، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ

الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]

قال البيضاوي - رحمه الله: "﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل: في كرمٍ تدلَّت عناقيدُه ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رَعْنَةً لَيْلاً" (٩)... وحكمه في شرعنا عند الشافعي: وجوبُ ضمان المتلف.

(١) الكشف والبيان: ١٤٧/١٨.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي: ٤٥١/٣، والتفسير البسيط: ١١٠/١٥، ومفاتيح الغيب للرازي: ١٥٥/٢٢.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ٨٦.

(٤) الكشف والبيان: ١٤٦/١٨.

(٥) الرازي - عفا الله عنه - يقول هذا والحديث مُحَرَّجٌ في الصحيحين!

(٦) مفاتيح الغيب: ١٥٦/٢٢.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ٨٤/٦، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ومسلم في صحيحه (١٩٤) ١٨٤/١، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٨) التفسير البسيط: ١١٤/١٥.

(٩) وهذا قول جميع المفسرين، ينظر: جامع البيان: ٤٧٥/١٨، والتفسير البسيط: ١٣٣/١٥.

بالليل؛ إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً، وهكذا قضى النبي ﷺ لَمَّا دخلت ناقة البراء حائطاً^(١) وأفسدته؛ فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل»، وعند أبي حنيفة: لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ؛ لقوله ﷺ: «جرخ^(٢) العجماء جباراً^(٣)»^(٤).

تخريج الحديثين:

الحديث الأول: أخرجه أبو داود^(٥)، ولفظه: عن البراء ﷺ قال: كانت له ناقة ضارية^(٦) فدخلت حائطاً فأفسدت فيه؛ فكلم رسول الله ﷺ فيها؛ «فقضى: أن جفط الحوائط بالنهار على أهلها، وأن جفط الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل». الحديث الثاني: متفق عليه^(٧)، بلفظ: «العجماء جرحتها جباراً» الحديث.

الدراسة:

اتفق الأئمة على أنه "لا ضمان على أرباب المواشي فيما أصابت بالنهار"^(٨)، واختلفوا في وقوع الضمان عليهم فيما أصابته مواشيهم بالليل، على قولين:

القول الأول: أن عليهم الضمان، وهذا قول جمهورهم: مالك والشافعي وأحمد^(٩).

واستدلوا لقولهم بظاهر الآية؛ "لأن داودَ حكم بالضمان، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يثبت نسخه"^(١٠)، ونوقش به: أنه "لا خلاف بين أهل العلم أن حكم داود وسليمان بما حكما به من ذلك منسوخ"^(١١)، وأجيب به: أن "الآية تضمنت أحكاماً، منها: وجوب الضمان وكيفية، فالنسخ حصل على كفيته، ولم يحصل على أصله؛ فوجب التعلق به"^(١٢)؛ ومن أدلتهم: قضاء النبي ﷺ الوارد في حديث البراء ﷺ^(١٣)، ونوقش من حيث الثبوت

(١) الحائط: البستان إذا كان عليه جدار، ينظر: النهاية: ٤٦٢/١.

(٢) "الجرخ هائماً: بفتح الجيم؛ على المصدر لا غير"، النهاية: ٢٥٥/١.

(٣) "الجبار: الهدر، والعجماء: الدابة"، النهاية: ٢٣٦/١.

(٤) أنوار التنزيل: ٥٧/٤.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٧٠) ٢٩٨/٣، كتاب البيوع، باب المواشي تُفْسِدُ زرع قوم، والحاكم في المستدرک على الصحيحين (٢٣٠٣) ٥٥/٢، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٦) "المواشي الضارية: المعادة لرعي زروع الناس"، النهاية: ٨٦/٣.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩١٢) ١٢/٩، كتاب الديات، باب المعدن جباراً والبر جباراً، ومسلم في صحيحه (١٧١٠) ١٣٣٤/٣، كتاب الحدود، باب جرخ العجماء والمعدن والبر جباراً.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي: ٢٦٧/٣.

(٩) ينظر: الحاوي الكبير للماوردي: ٤٦٨/١٣، والبيان والتحصیل لابن رشد: ٢١١/٩، والمعني لابن قدامة: ١٨٧/٩.

(١٠) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: ٢٠٣/٣.

(١١) أحكام القرآن للجصاص: ٥٤/٥.

(١٢) زاد المسير: ٢٠٣/٣.

(١٣) فتح القدير للشوكاني: ٤٩٤/٣.

والدلالة: أما ثبوته فقد اختلفَ في إسناده ومنتنه؛ قيل: "وهذا يدلُّ على اضطرابِ الحديثِ بمتنه وسنده"^(١)، وأجيب به: أنه ثبت من طريقٍ أخرى لا علةَ فيها^(٢)، وعلى التسليم بوقوعها؛ فقد قال الحافظ ابن عبد البر: "هو حديثٌ تلقاهُ أهلُ الحجاز وطائفةٌ من أهلِ العراق بالقولِ والعملِ"^(٣)؛ وأما دلالته على التضمنين فنوقشت به: أنها منسوخةٌ بحديثِ أبي هريرة رضي الله عنه في هُدْرٍ جرحِ العجماء^(٤)، وأجيب به: أن "النسخ شرطه معدومة"^(٥)، والتعارض إنما يصحُّ إذا لم يُمكن استعمالُ أحدهما إلا بنفي الآخر، وحديث: «العجماءُ جرحُها جبارٌ» عمومٌ متفقٌ عليه، ثم حُصِّ منه الزُّرْعُ والحوائطُ بحديثِ البراء^(٦)؛ فأمكن العملُ بالحديثين دون طرحِ لأحدهما.

القول الثاني: أنه لا ضمان على أرباب المواشي فيما أصابته مواشيهم بالليل، كما إذا أصابته بالنهار، مالم يكن مالِها هو مَنْ أطلقها، وهذا قول أبي حنيفة^(٧).

واستدلَّ أبو حنيفة - رحمه الله - بقوله به: حديث: «العجماءُ جرحُها جبارٌ» المتقدم؛ ففاس جميع أعمالها على جرحها^(٨)، ونوقش من وجوه: "أولهما: الجرح لا يكون في رعي الزُّروع، والثاني: أنه محمولٌ على رعي النهار^(٩)، والثالث: أن "هذا القياس فاسدٌ الاعتبار؛ لأنه في مقابلة النص"^(١٠).

الترجيح:

الراجح في هذه المسألة: ما ذهب إليه جمهور الأئمة لقوة أدلتهم، ومن قواعد التفسير ما جاء في قول الطبري: "وغيرُ جائزٍ أن يُحكَمَ بحكمٍ قد نزل به القرآنُ أنه منسوخ، إلا بحجَّةٍ يجب التسليم لها"^(١١)، وبه يتبين: أن ما ذهب إليه البيضاوي - رحمه الله - في تفسير الآية من الاستدلال بالحديث موافقٌ لمذهب الجمهور، والله أعلم.

المطلب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَا التُّوبِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ وَكَذَلِكَ نُفَصِّحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]

قال البيضاوي - رحمه الله: "﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ من أن يُعجزَكَ شيءٌ ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾"

- (١) أحكام القرآن للجصاص: ٥٤/٥.
- (٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢٦٥/٣.
- (٣) الاستنكار لابن عبد البر: ٢٠٥/٧.
- (٤) ينظر: الباب في الجمع بين السنة والكتاب للخزرجي: ٧٢٨/٢.
- (٥) أي: معدومة في هذا الوطن.
- (٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣١٥/١١.
- (٧) ينظر: أحكام القرآن للجصاص: ٥٤/٥، والباب في الجمع بين السنة والكتاب: ٧٢٨/٢.
- (٨) الجامع لأحكام القرآن: ٣١٥/١١؛ وينظر: أحكام القرآن للجصاص: ٥٤/٥.
- (٩) الحاوي الكبير: ٤٦٩/١٣.
- (١٠) فتح القدير: ٤٩٤/٣.
- (١١) جامع البيان: ٣٨٢/١٣.

لنفسى بالمبادرة إلى المهاجرة، وعن النبي - عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ؛ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ»^(١).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه الترمذي^(٢)، ولفظه: «دَعْوَةُ ذِي التُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ؛ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ». **الدراسة:**

اتفق صنيع البيضاوي - رحمه الله - في هذا الموضوع مع صنيع المفسرين في الاستدلال بهذا الحديث على بيان معنى الآية، وهو تفسيرٌ نبويٌّ صريحٌ.

قال الطبري: «وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ» يقول جل ثناؤه؛ وكما أنجينا يونس من كرب الحيس في بطن الحوت في البحر إذ دعانا، كذلك نُنجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا، وبنحو الذي قلنا في ذلك جاء الأثر... عن سعيد بن المسيب، قال: سمعت سعد بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسْمُ اللَّهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَحَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ: دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هِيَ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّى خَاصَّةً، وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً إِذَا دَعَا بِهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّبْنَاهُ مِنَ الْعَرِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ»؛ فَهُوَ شَرْطُ اللَّهِ لِمَنْ دَعَاهُ بِهَا»^(٣) (٤).

وقال ابن أبي حاتم: عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونُسَ؛ اسْتَجِيبَ لَهُ»؛ قال أبو سعيد الأشج: يريد: «وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ»^(٥). ومثل هذا قال التعليُّ والواحديُّ وابنُ الجوزي^(٦) - رحم الله الجميع -.

المطلب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

الموضع الأول:

قال البيضاوي - رحمه الله: «﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] يَحْتَمِلُ: الْأَوْثَانُ وَإِبْلِيسَ وَأَعْوَانَهُ؛ لِأَنَّهُمْ بَطَاعَتُهُمْ لَهُمْ فِي حُكْمِ عِبَادَتِهِمْ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمَّا تَلَا آيَةَ عَلَى

(١) أنوار التنزيل: ٥٩/٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٥) ٥٢٩/٥، أبواب الدعوات، باب [هكذا دون تسمية]، والحاكم في المستدرک على الصحيحين (١٨٦٢) ١/٦٨٤، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٣) الحديث بهذا السياق إسناده ضعيفٌ. ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني: ٢٩٢/٦.

(٤) جامع البيان: ٥١٨/١٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٢٤٦٥/٨؛ والحديث صحيح، تقدم تخريجه في فقرة (تخريج الحديث).

(٦) ينظر: الكشف والبيان: ٢٤٥/١٨، والتفسير البسيط: ١٦٨/١٥، وزاد المسير: ٢١٠/٣.

المشركين؛ قال له ابنُ الرِّبْعِيِّ: قد خصمتك وربُّ الكعبة؛ أليس اليهودُ عبدوا عزيزاً؟ والنصارى عبدوا المسيح؟ وبنو مَلِيحٍ عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بَلْ هُمْ عَبْدُوا الشَّيَاطِينِ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية^(١).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه الطحاوي في شرح المشكل^(٢)، عن ابن عباس -رضي الله عنهما، ولفظه: "لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَقَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ أَهْلَنَا؛ فَقَامَ ابْنُ الرِّبْعِيِّ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ أَهْلَنَا، قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالُوا: قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قَالَ: ادْعُوهُ لِي؛ فَدَعَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ ابْنُ الرِّبْعِيِّ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا شَيْءٌ لَأَهْلِنَا خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِن دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِن دُونِ اللَّهِ ﷻ»؛ فَقَالَ: خَصَمْنَا وَرَبِّ هَذِهِ الْبَيْتَةِ، يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عَيْسَى عَبْدٌ صَالِحٌ، وَعَزِيزٌ عَبْدٌ صَالِحٌ، وَالْمَلَائِكَةُ عِبَادٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ: «بَلَى»؛ قَالَ: فَهَذِهِ النَّصَارَى يَعْبُدُونَ عَيْسَى، وَهَذِهِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عَزِيزًا، وَهَذِهِ بَنُو مَلِيحٍ تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ؛ قَالَ: فَضَحَّ أَهْلُ مَكَّةَ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ عَيْسَى وَعَزِيزٌ وَالْمَلَائِكَةُ ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾... الحديث.

الدراسة:

اختلف أهل التفسير في القصة الواردة في هذا الحديث كونها سبباً لنزول الآية أم لا، على قولين:
القول الأول: أن هذه القصة هي سبب نزول الآية، وهو مروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما^(٣)، واختاره عاقمة المفسرين^(٤).

أسند الطبري عن ابن عباس -رضي الله عنهما - قال: "لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؛ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: فَإِنَّ عَيْسَى يُعْبَدُ، وَعَزِيزٌ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُعْبَدُونَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لعيسى وغيره^(٥)؛ وهذا حديثٌ صريحٌ في الدلالة على السببية.

(١) أنوار التنزيل: ٦١/٤.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩٨٦) ١٥/٣، والحديث حسنٌ بشواهده. ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي: ١٣٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٥٤٠/١٨.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٢٤٦٨/٨، والكشف والبيان: ٢٦٧/١٨، والنكت والعيون: ٤٧٣/٣، والتفسير

البيسط: ٢١٠/١٥، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠١/٤.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٥٤٠/١٨.

والحُجَّة في هذا: أن سبب التُّرول إذا صحَّ سنده؛ فهو في حكم الحديث المرفوع إلى النَّبِيِّ ﷺ؛ كما قال الحاكم النيسابوري: "فإن الصحابيَّ الذي شهدَ الوحيَ والتنزيل، فأخبر عن آيةٍ من القرآن أهما نزلت في كذا وكذا؛ فإنه حديثٌ مسندٌ" (١) (٢).

القول الثاني: أن ما ذكر من سبب التُّرول لا حاجةٍ إليه؛ لأنَّ سؤالَ ابنِ الزَّيْعَرِيِّ ساقطٌ من أصله، وهذا ما قرَّره الرازي (٣)، وتبعه ابن عادل الدمشقي (٤).

قال الرازي: "اعلم: أن من الناس من زعم أن ابنَ الزَّيْعَرِيِّ لَمَّا أورد ذلك السؤالَ على الرسول ﷺ بقي سائلاً حتَّى أنزل الله تعالى هذه الآية جواباً عن سؤاله؛ لأن هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية، وأما نحن فقد بينا فسادَ هذا القول، وذكرنا (٥) أن سؤاله لم يكن وارداً، وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية" (٦).

ونوقش هذا القول من وجوه: أحدها: أن ما ذكره من سقوط سؤال ابنِ الزَّيْعَرِيِّ غير وارد؛ لأنَّ (ما) تعمُّ العقلاءَ وغيرهم، وهو مذهب جمهور أئمة اللُغة، ومشركوا قريش كانوا من فصحاء العرب - وبلغتهم نزل القرآن - فلو لم يفهموا العموم؛ لَمَّا اعترضوا (٧)؛ **الوجه الثاني:** أن الرازي برَّده لسبب التُّرول الثابت أخذ بقولٍ وردَّ قولاً آخرَ دون حُجَّة، وبيان ذلك: أن الرازي قال في سبب نزول الآية: "روي في ذلك روايتان: إحداها: أن رسول الله ﷺ سكت ولم يُجب؛ فضحك القوم فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الآيتين [الزخرف: ٥٧-٥٨]... هذا قول ابن عباس، الرواية الثانية: أنه ﷺ أجاب وقال: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرهم بذلك»؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِمَّا أَحْسَبُوا﴾ الآية (٨)؛ فسكوت النَّبِيِّ ﷺ ورد في الرواية الأولى، ولم يرد في الرواية الثانية وهي الثابتة، فردَّ الرازي الأولى الواهية وترك الأخرى الثابتة؛ **الوجه الثالث:** أن الرواية الأولى المتضمنة للسُّكوت هي رواية مقاتل والكلبي (٩) - وهما غيرُ مرضيين عند أهل التحقيق (١٠) - وروايتهما مخالفة للرواية المشهورة، وهما مع ذلك أرسلتا الحديث ولم يسندها؛ فهو ضعيف جداً (١١).

(١) مسند: أي متَّصل، في حكم المرفوع إلى النَّبِيِّ ﷺ. ينظر: معرفة علوم الحديث للحاكم: ١٧.

(٢) معرفة علوم الحديث: ٢٠.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨٧/٢٢.

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب للدمشقي: ٦٠٩/١٣.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨٧/٢٢، قال: "واعلم: أن سؤال ابنِ الزَّيْعَرِيِّ ساقطٌ من وجوه"، ثم ذكر (٥) أوجه.

(٦) مفاتيح الغيب: ١٨٩/٢٢.

(٧) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي: ٨٩/٩.

(٨) مفاتيح الغيب: ١٨٧/٢٢.

(٩) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٤/٣، والتفسير البسيط: ٢١٠/١٥.

(١٠) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٢٤٨/٦، ٢٠١/٧.

(١١) ولذلك - والله أعلم - أعرض عنه أهل التحقيق من مسندي المفسرين، كالطبري وابن أبي حاتم - رحمهما الله -.

الترجيح:

الراجح في قول تعالى: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنُ﴾: أنه نزل بسبب اعتراض المشركين على النبي ﷺ، وبذلك ورد الخبر، وهو اختيار عامة أهل التفسير، وبه يتبين: أن ما اختاره البيضاوي - رحمه الله - من ثبوت سبب النزول بذلك موافق لمذهب عامة المفسرين، والله تعالى أعلم.

الموضع الثاني:

قال البيضاوي - رحمه الله: "رُوي أن علياً - كرم الله وجهه - خطب وقرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]"^(١).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره^(١) بطوله؛ وأخرجه الطبري في تفسيره^(٣) من وجه آخر مختصراً، عن محمد بن حاطب، قال: سمعت علياً يخطب، فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنُ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾، قال: "عثمان ﷺ منهم".

الدراسة:

اختلف قول أهل التفسير في تعيين المبهمين الواردين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنُ﴾، على قولين:

القول الأول: أن المراد بهم: "من عُبد من دون الله، وهو لله طائع، ولعبادة من يعبدُه كاره"^(٤)، وهذا قول أكثر المفسرين^(٥)، واختاره الطبري والتعلي والواحدي^(٦).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب: قول من قال: عني بقوله: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنُ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ ما كان من معبود كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع، وعابده بعبادتهم إياه بالله كقار"^(٧).

(١) أنوار التنزيل: ٦١/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (١٣٧٤٨) ٢٤٦٩/٨، عن ليث بن أبي سليم؛ وليث قال فيه الحافظ ابن حجر (في تقريب التهذيب: ٤٦٤): "صدوق، اختلط جداً ولم يتميز حديثه؛ فترك"، والراوي عن علي ﷺ مبهم مجهول.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٥٣٨/١٨، ورجال إسناده ثقات.

(٤) جامع البيان: ٥٣٨/١٨.

(٥) ينظر: الكشف والبيان: ٢٦٦/١٨.

(٦) ينظر: جامع البيان: ٥٤٠/١٨، والكشف والبيان: ٢٦٦/١٨، والتفسير البسيط: ٢١١/١٥.

(٧) جامع البيان: ٥٤٠/١٨.

واستدلوا بدليلين: أولهما: ورود الخبر المرفوع بهذا التَّعيين؛ فوجب الأخذُ به وترك ما عداه؛ لأن "علم المبهمات مرجعهُ النَّقْلُ المحضُ، لا مجالٌ للرأْيِ فيه"^(١).

الدليل الثاني: قال الثعلبي: "ولأنَّ المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة، وهم كانوا يعبدون الأصنام"^(٢)، أي: فلا يتناول الخطاب غيرهم.

القول الثاني: عكس الأول، أن المراد بمن سبقت لهم الحُسنى: "كلُّ مَنْ سبقت له من الله السَّعادةُ من خلقه أنه عن النَّارِ مُبعدٌ"^(٣)، قال الواحدي: وهذا مذهب أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وهو اختيار أكثر أهل المعاني^(٤).

واستدلوا به: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ أراد به أوثانَ قريشٍ، ولو كان عُزَيْرٌ وعيسى والملائكة داخلون تحت الكلام؛ لقليل: ومن تعبدون^(٥)، ونوقش به: أنَّ (ما) تستعمل للعقلاء أيضًا، وقد فهم ذلك ابنُ الزَّيْعَرِي - وهو من فصحتهم - لذلك أورد ما أورده، لكن جاءت الآية بتأكيد عدم دخولهم في الوعيد^(٦)؛ ومن أدلتهم: أن قوله لابن الزَّيْعَرِي: «هِيَ عَامَّةٌ» يعني: في ما عبد من دون الله من غير العقلاء^(٧)؛ ونوقش به: أن هذا قصرٌ للنص لا دليل عليه؛ فإن إبليس وجنوده داخلون في ذلك قطعًا، وهم من العقلاء.

وأما نسبة الواحدي هذا القول إلى عليٍّ عليه السلام فنوقشت به: أنَّها محلُّ استدراكٍ ونظرٍ؛ فإن قوله صريحٌ في أنه لم يرد سبب النَّزول، وعلى افتراض إرادته ذلك؛ فالأشبه فيه أن يُصرف إلى ما قاله شيخ الإسلام: "وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة: أنه سبب النَّزول، ويراد به تارة: أن ذلك داخلٌ في الآية وإن لم يكن السَّبب، كما تقول: عني بهذه الآية كذا"^(٨).

القول الثالث: جمع بين القولين الأولين؛ فرأى أنَّ الآية نزلت في عيسى وعُزَيْرٍ والملائكة - عليهم السلام - خصوصًا، وهي شاملةٌ لكلِّ من ينطبق عليه مضمون الصلَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ عموماً، وهذا اختيار جمعٍ من المفسرين^(٩).

قال الرازي: "من قال: العبرةُ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب - وهو الحقُّ - أجزاها على عمومها؛ فتكون الملائكةُ والمسيحُ وعُزَيْرٌ - عليهم السلام - داخلين فيها، لا أنَّ الآية مُختصةٌ بهم"^(١٠)، وقال الألوسي: ما ذكر في

(١) الإِتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٩٥/٤.

(٢) الكشف والبيان: ٢٦٨/١٨.

(٣) جامع البيان: ٥٣٨/١٨.

(٤) ينظر: التفسير البسيط: ٢١٢/١٥.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) ينظر: روح المعاني ٩٠/٩.

(٧) التفسير البسيط: ٢١٣/١٥.

(٨) مقدمة في أصول التفسير: ١٦.

(٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٤٦٨/٨، والنكت والعيون ٤٧٣/٣، وزاد المسير ٢١٥/٣.

(١٠) مفاتيح الغيب: ١٨٩/٢٢.

بعض الآثار من تفسيره بعبسى وعزير والملائكة - عليهم السلام - فهو من الاقتصار على بعض أفراد العام؛ حيث إنه السبب في التزل، وينبغي أن يجعل من باب الاقتصار أيضاً: ما روي عن علي - كرم الله تعالى وجهه - أنه فسّر الموصول بعثمان وأصحابه رضي الله عنهم (١).

الترجيح:

الراجح من الأقوال السابقة: هو القول الثالث الذي اختاره جمع من المفسرين، من الجمع بين القولين الأولين دون طرح لأحدهما؛ لأن في الراجح من قواعد التفسير: "أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" (٢)؛ وبه يتبين: موافقة ما ذهب إليه البيضاوي - رحمه الله - لما عليه جمع المفسرين، والله أعلم.

المطلب الخامس: خاتمة السورة

قال البيضاوي - رحمه الله: "وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ اقْتَرَبَ؛ حَاسِبُهُ اللَّهُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَصَافِحَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذَكَرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ» (٣).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه الثعلبي والواحدي في تفسيريهما (٤)، بإسناديهما إلى أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾» الحديث.

الدراسة:

اختلفت أحوال المفسرين حيال هذا الحديث المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه، على ثلاثة أضرب: الضرب الأول: الذين أعرضوا عن ذكره وإيراده، وهم أكثر المفسرين، كابن عطية وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم (٥). الضرب الثاني: الذين ذكروه ونصوا على رده، وهذا صنيع الفيروز آبادي والخطيب الشربيني (٦). قال الشربيني: "وأما ما رواه البيضاوي (٧) تبعاً للزمخشري (٨)، من أنه صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿اقْتَرَبَ﴾...»، فحديث موضوع (٩).

(١) ينظر: روح المعاني: ٩٢/٩.

(٢) ينظر: الإتيان: ١١٠/١.

(٣) أنوار التنزيل: ٦٣/٤.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان (١٨٦٩) ٩٤/١٨، والواحدي في التفسير الوسيط (٦١٣) ٢٢٩/٣، والحديث موضوع، وأرجئ ذكر أقوال أهل العلم في ذلك إلى موضع الدراسة.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٧٣/٤، وزاد المسير: ١٨٤/٣، والجامع لأحكام القرآن: ٢٦٦/١١، وروح المعاني: ٣/٩.

(٦) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي: ٣٢٢/١، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم: ٥٣٥/٢.

(٧) البيضاوي - رحمه الله - ليس من المفسرين الذين يوردون الحديث مسنداً؛ فعبارة (رواه) فيها توسع.

(٨) إنما نص الشربيني على الزمخشري؛ لأنه من أصول البيضاوي التي اعتمد عليها - كما تقدم، وإلا فقد تبين أن الحديث أسنده الثعلبي والواحدي - رحم الله الجميع.

(٩) السراج المنير: ٥٣٥/٢.

الضرب الثالث: الذين ذكروه دون تعقيبٍ عليه، وهم الثعلبيُّ والواحديُّ اللذان أسندها من طريقين - كما تقدم في تخريج الحديث، وتبعهما في ذلك - دون إسنادٍ للحديث - : الجرجانيُّ والزمخشريُّ وغيرهم^(١). قال الجرجانيُّ: "عن أبي، عنه عليه السلام: «مَنْ قرأ سورة الأنبياء...»"^(٢). وتُعَيَّبَ صنيع هؤلاء بأنَّ هذا الحديث موضوعٌ لا أصلَ له؛ قال الشوكانيُّ: "ولهذا الحديث طرقٌ كلها باطلةٌ موضوعة... وقد اغترَّ به جماعةٌ من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم: كالثعلبيِّ والواحديِّ والزمخشريِّ، ولا جرم؛ فليسوا من أهلِ هذا الشأن"^(٣) (٤).

الترجيح:

تبينَ بما سبق: أن ذكر البيضاويِّ - رحمه الله - لهذا الحديث في تفسيره منتقداً عليه؛ وبذلك يكون قد خالف أهل التحقيق من المفسرين في عدم ذكرهم له أو ذكره مع الإشارة إلى كونه موضوعاً، والله أعلم.

الخاتمة:

بعد عرض البحث المتعلق بدراسة تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في تفسيره - سورة الأنبياء أمودجاً؛ فهذه أهم النتائج، مع التوصيات والمقترحات التي ظهرت لي، وذلك على النحو التالي:

أهم نتائج البحث:

- ١- المقصود بتفسير القرآن بالسنة: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي يُتوصَّل من خلالها إلى: فهم كتاب الله ﷻ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.
- ٢- أهم أنواع تفسير القرآن بالسنة ثلاثة، وهي: التفسير المباشر الصريح - التفسير الموضوعي - التفسير الاستشهادي.
- ٣- المقصود بالتفسير المباشر: ما ورد عن النبي ﷺ صريحاً في تفسير الآية: قولاً، أو فعلاً، أو تقريراً.
- ٤- المقصود بالتفسير الموضوعي: الاستفادة من السنة النبوية في بيان الموضوع الذي تضمَّنته الآية؛ تقريراً أو تفصيلاً، دون أن يكون في الحديث تفسيرٌ مباشرٌ لها.
- ٥- المقصود بالتفسير الاستشهادي: ذكر النبي ﷺ الآية في حديثه دون تفسيرٍ مباشرٍ لها، ولكن على سبيل الاستشهاد لحادثة، أو التأكيد والتقرير لحديثه.
- ٦- الأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسير سورة الأنبياء، تضمَّنت أربعة منها تفسيراً مباشراً صريحاً، وورد في واحدٍ منها تفسيرٌ موضوعي، وتعلَّق واحدٌ منها بفضائل السُّور.

(١) ينظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني: ١٢٤٤/٣، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري: ١٤٠/٣، واللباب في علوم الكتاب: ٦٢٨/١٣.

(٢) درج الدرر: ١٢٤٤/٣.

(٣) أي: ليسوا من أهل المعرفة بعلم الحديث وتمييز صحيحه من سقيم، كما قال شيخ الإسلام في بعضهم: "كان حاطبٌ ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير: من صحيح، وضعيف، وموضوع"، مقدمة في أصول التفسير: ٣١.

(٤) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني: ٢٩٦.

- ٧- درجات الأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسير سورة الأنبياء كالتالي: حديثان متفق عليهما، وثلاثة أحاديث صحيحة، وواحد حديث موضوع.
- ٨- علوم القرآن المتعلقة بالأحاديث التي استدلت بها القاضي البيضاوي في تفسير سورة الأنبياء ستة، وهي: التفسير والبيان - آيات الأحكام - أسباب النزول - مبهمات القرآن - مشكل القرآن - فضائل القرآن.
- ٩- استدلال القاضي البيضاوي بالأحاديث النبوية في تفسير سورة الأنبياء جاء موافقاً للقول الراجح في أربعة مواضع، ومخالف للقول الراجح في موضعين.

أهم التوصيات والمقترحات:

- ١- تخصيص رسائل علمية تعنى بدراسة تفسير القرآن بالسنة عند القاضي البيضاوي في جميع تفسيره.
- ٢- دراسة مشكل القرآن عند القاضي البيضاوي في تفسيره؛ فهو من الموضوعات التي لم تزل حظها من الدراسة الشاملة فيما يختص بهذا التفسير.
- ٣- إظهار مزيد من علوم القرآن الواردة في هذا التفسير القيم؛ لأن ما تناولته الدراسات السابقة لا يُثقل من ذلك إلا التزير اليسير.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن الأثير، المبارك بن محمد. النهاية في غريب الحديث والأثر. المكتبة العلمية: بيروت، (١٣٩٩هـ).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. زاد المسير في علم التفسير. دار الكتاب العربي: بيروت، (١٤٢٢هـ).
- ابن العربي، محمد بن عبد الله. أحكام القرآن. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٢٤هـ).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. مقدمة في أصول التفسير. دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٤٠٠هـ).
- ابن رشد، محمد بن أحمد. البيان والتحصيل. دار الغرب الإسلامي: بيروت، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. الاستاكار. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٢١هـ).
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٢٢هـ).
- ابن قاضي شهبه، أبو بكر بن أحمد. طبقات الشافعية. عالم الكتب: بيروت، (١٤٠٧هـ).
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. تأويل مختلف الحديث. المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراف: (١٤١٩هـ).
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد. المغني في فقه الإمام أحمد. مكتبة القاهرة: بدون تاريخ.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. دار طيبة للنشر والتوزيع: ١٤٢٠هـ.
- ابن اللحام، علي بن محمد. المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. جامعة الملك عبد العزيز: مكة المكرمة، (د. ت).
- الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. دار المعارف: الرياض، (١٤١٢هـ).
- الألوسي، محمود بن عبد الله. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٥هـ).

- الباتلي، خالد بن عبد العزيز. التفسير النبوي. دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع: الرياض، (١٤٣٢هـ).
- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. دار طوق النجاة: (١٤٢٢هـ).
- البلخي، مقاتل بن سليمان. تفسير مقاتل بن سليمان. دار إحياء التراث: بيروت، (١٤٢٣هـ).
- البيضاوي، عبد الله بن عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٤١٨هـ).
- الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر، (١٣٩٥هـ).
- الثعلبي، أحمد بن إبراهيم. الكشف والبيان عن تفسير القرآن. دار التفسير: جدة، (١٤٣٦هـ).
- الرجزاني، علي بن محمد. التعريفات. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- الرجزاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. درج الدرر في تفسير الآي والسور. مجلة الحكمة: بريطانيا، (١٤٢٩هـ).
- الخصاص، أحمد بن علي. أحكام القرآن. دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٤٠٥هـ).
- الجندي، محمد بن يوسف. السلوك في طبقات العلماء والملوك. مكتبة الإرشاد: صنعاء، (١٩٩٥م).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. دار العلم للملايين: بيروت، (١٤٠٧هـ).
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مكتبة المثنى: بغداد، (١٩٤١م).
- الحاكم، محمد بن عبد الله. المستدرک علی الصحیحین. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١١هـ).
- ". معرفة علوم الحديث. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان. دار صادر: بيروت، (١٩٩٥م).
- الخرجي، اللباب في الجمع بين السنة والكتاب. دار القلم: دمشق، الدار الشامية: بيروت، (١٤١٤هـ).
- الدمشقي، عمر بن علي. اللباب في علوم الكتاب. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٩هـ).
- الذهبي، محمد بن أحمد. سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٤٠٥هـ).
- الرازي، محمد بن عمر. مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٤٢٠هـ).
- الزركشي، محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. دار إحياء الكتب العربية: مصر، (١٣٧٦هـ).
- الزحشري، محمود بن عمرو. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل. دار الكتاب العربي: بيروت، (١٤٠٧هـ).
- السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين. طبقات الشافعية الكبرى. هجر للطباعة والنشر: (١٤١٣هـ).
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود. المكتبة العصرية: بيروت، (د. ت).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتقان في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر، (١٣٩٤هـ).
- ". الدر المنثور في التفسير بالمأثور. دار الفكر: بيروت، (د. ت).
- الشربيني، محمد بن أحمد. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. مطبعة بولاق (الأميرية): القاهرة، (١٢٨٥هـ).
- الشوكاني، محمد بن علي. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. دار الكتب العلمية: بيروت، (د. ت).
- ". فتح القدير. دار ابن كثير: دمشق، دار الكلم الطيب: بيروت، (١٤١٤هـ).

- الطبري، محمد بن يزيد. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٤٢٠هـ).
- الطحاوي، أحمد بن محمد. شرح مشكل الآثار. مؤسسة الرسالة: (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- الطيبار، مساعد بن سليمان. المحرر في علوم القرآن. مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي: (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- العسقلاني، أحمد بن علي. تقريب التهذيب. دار الرشيد: سوريا، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي: القاهرة، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. دار الكتب المصرية: القاهرة، (١٣٨٤هـ).
- القزويني، أحمد بن فارس. مجمل اللغة. مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- القسطلاني، أحمد بن محمد. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. المطبعة الكبرى الأميرية: مصر، (١٣٢٣هـ).
- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. دار إحياء التراث العربي: بيروت، (د. ت).
- الماوردي، علي بن محمد. الحاوي الكبير. دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- ". النكت والعيون. دار الكتب العلمية: بيروت، (د. ت).
- الواحدي، علي بن أحمد. التفسير البسيط. عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الرياض، (١٤٣٠هـ).
- الوادعي، مقبل بن هادي. الصحيح المسند من أسباب النزول. مكتبة ابن تيمية: القاهرة، (١٤٠٨هـ).